من دمشق الى بغداد

اهتمت الحكومة الانكليزية منذ اعوام باكتشاف الطريق التي تخترق البادية من العراق الى سورية . وجاء في تلغرافات روتر في الشهر الماضي ان الحكومة ارسلت سيارات لتجوب هذه الصحارى الشاسعة كما ان اثنتي عشرة سيارة سافرت من دمشق الى بغداد في نفس هذه الطريق في العام الماضي . وفي اول يونيو من هذه السنة جاءت اربع سيارات الى كبيسة من القدس وفي صحبتها طيارات وقد اكتشفت الطريق المهجورة التي لا تسلك وسارت فيها عشرين يوماً وهي الى جنوب الطريق التي سرنا فيها . ولما سافرتُ فيها هذا العام كتبت عنها في يومياتي اشياء تستحق الذكر فرأيت نشرها في المقتطف ام لفائدتها واحفظ لها فارسلتها من بغداد خدمة لمن يحب البحث في مثل هذه الموضوعات !

ان الراحل في بادية الشام الشرقية لا يرى في طريقه الاَّ الفيافي والقفار والاودية والانجد . ولقد يقول القائل بايجاز عن هذه المرحلة انهُ سافر في صحراء من ضُمير الى كبيسة . فضمير آخر عمران في طريق الذاهب من دمشق وكبيسة اول قرية في وجهته الى العراق . ولا شك ان هذه الصحارى المتقاذفة الارجاء لا يعرفها الاَّ قليل من التجار الذين يسلكونها ويحملون فيها تجارة سورية الى العراق وبضاعة العراق الى سورية ولا يستطيع طروقها احد غيرهم لبعدها وتشعب سبلها وتشابه مناشجها ومخارمها ولقلة مياهها وفقد الامن فيها لانها مطمح الغزاة وقطاع الطريق ولصوص الاعراب . والتجرُ النجديون يأتونها في الشتاء والصيف فيتبرّضون الغدر . والركايا والقلبان ومجامع السيول ومواقع الامطار كما سيأتي ولهم معرفة عجيبة بأمكنة المياه وفيهم صبر على العطش ومطال على الظماء ولا صبر جمالهم على الربع والخمس . وفي مواسم الحر تنضب المياه فيتزودون الماء من ثلاثة مواضع من ضُمير والقمرة وكبيسة ويجدُّون في السير ليختصروا المدة اختصاراً

مقدمات السفر

في ١٠ يناير سنة ١٩٢١ آثر جماعة من العراقيين السفر الى بغداد عن طريق البادية فسألوا عن اول قافلة تذهب الى العراق فذُكر لهم رجل صاحب جمال فوجدوهُ

في ميدان دمشق فتاوضوهُ في حملهم الى بغداد وبرز بهم يوم ١٥ فبراير . وخروج مقدمة القافلة يقال لهُ تبريز ، واول من يبرز المتعجل منهم ثم يلحق بهِ المتريث حتى تجتمع القافلة في محل فيسافروا كلهم معاً

١٥ فبراير — خرجنا في صبحهِ من دمشق فسارت الابل رويداً ووصلت في الضحوة الكبرى (حَرَسْتَا) ثم (دَوْمَة) ثم (عَدَرَة) فنزلناها ليلتنا . وهي قرية صغيرة . نزلنا فيها على رجل بوّأ لنا بيتاً في داره مبنياً باللبن مفروشاً على ذوق اهل البادية وعلى احد جدرانهِ قطع من القماش وفي اعلاهُ آنية نحاسية فجلسنا — وقد مسنا التعب لركوب الابل حيال الموقد وكان يوماً مطيراً والابل لا تسير في الاوحال فلم نبرح مكاننا الى اليوم الثاني وفي غداتهِ شددنا رحالنا وسافرنا الى ضُمير

١٦ منهُ — نزلنا ضميراً في ضحوتهِ وهي آخر قرية في غوطة دمشق ذكرها ياقوت الحموي بعينها في معجمهِ قال « ضُمير : تصغير ما شئت مما تقدم (وقد تقدم ضمر وضمرة) موضع قرب دمشق ، قيل هو قرية وحصن في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة . قال عبيد الله بن قيس الرقيات :

اقفرت منهم الفراديس فالغو طة ذات القرى وذات الظلال
فضميرٌ فالماطرون فحورا نٌ فقفار بسابس الاطلال

نصب الماطرون على ان نونهُ للجمع وهذه المواضع كلها بدمشق
وقال المتنبي :

لئن تركنا ضميراً عن يميننا ليحدثنَّ لمن ودعتهم ندم

وقال الفرزدق يرثي عمر بن عبيد الله بن معمر اليتمي وكان قد مات بضمير

يا معشر الناس لا تبكوا على احد بعد الذي بضمير وافق القدرا

وهي ناحية تابعة لمركز دومة بينها وبين دمشق سبع ساعات بسير الابل اهلها زرّاع فيها ما يزيد على اربعمائة دار وفيها مدرسة ابتدائية ومسجد وفيها القلعة التي شك فيها ياقوت يسمونها اليوم حصن ضمير وهي في وسط القرية دخلناها وطفنا بها فرأيناها مربعة ارتفاعها وطولها وعرضها ٣٥ ذراعاً شامياً . وعلى بابها الغربي كتابة عربية مطموسة لم نقرأ الاَّ بعض كلماتها وهي منقورة حفراً على صخرة

بخط يشبه الخط المكتوب على ايام الملك الناصر والقلعة مبنية بالصخر وعليها نقوش مرسومة نحتاً وعلى بابها طنف يمتد بارزاً والباب معقود على نصف دائرة . ووراء الجدران الخارجية جدران مثلها في الداخل وبين الجدر غرف كثيرة المشارف متجاورة . البناء راسخ محكم لم يطرأ عليهِ الا تخريب قليل لم يذهب بجمالهِ التاريخي . ولا شك ان هذه القلعة من آثار الرومان لان بناءها لا يشبه البناء العربي . ويظن بعض انها كانت هيكلاً للرومان ثم حولهُ العرب الى حصن

وبعد زيارة هذا الاثر الخالد . جئنا في القرية ورأينا النهر الذي يسقيها وهو صغير قليل الماء لا يتجاوز ماؤهُ الكعبين فسألنا عنهُ فسموهُ (ماء المكبرت) وذكر لنا منبعهُ فشينا ساعة فوجدنا ساقيتين احداهما تجري بماء معدني فاتر وهو (المكبرت) والاخرى ماؤها عذب بارد وهي (عين الحلوة) يلتقيان امام القرية فيختلطان وقيل لنا ان على الماء حماماً فاذا هناك بئر عميقة مطوية بالحلاميد. عدنا الى القرية فرأينا القرويين يقيمون احتفال عرس وقد اكتظوا رجالاً ونساء لمشاهدة الحفلة فالرجال يرقصون في حلقة طويلة ويضربون الارض بارجلهم ويتمايلون يميناً ويساراً وفي يد احدهم منديل احمر يشير بهِ وبينهم رجل آخر يزمر لهم فيرمونهُ بالدراهم . ورأينا رجالهم يكتحلون كالنساء . اما النساء فيبرزن سافرات ويتحلين النحاس والفضة والقنيات يتحلين ذهباً

١٧ و١٨ منهُ — لم نبرح مكاننا ولم تجتمع القافلة هناك وفي صباح يوم ١٩ ضربنا خيامنا في ضاحية ضمير وبتنا فيها ليلتنا

٢٠ منهُ — نهضنا في صباحهِ وشددنا رحالنا وبعد طلوع الشمس سرنا ساعات فمررنا بقلعة تركية خربة ومررنا باطلال عافية كلها بقايا قرية دارسة وعلى يميننا جبال يسكنها بنو حسن وهم من اشرار الاعراب يقتلون المنبت ويسلبون الضعيف وكانت الارض مصخرة مجدبة لا ماء فيها ولا نبات الا تباشير الربيع المتفرقة في منخفضات البرية . وبعد جهد من السير مررنا بماء يسمونهُ (ماء الحوايا) وعلى شمالنا تلاع ونجاد يسمونها (الساحات) وقد واصلنا السير الى الاصيل ونزلنا موضعاً اسمهُ (ذيل ابو حميد) وبتنا فيهِ ليلتنا وقد اضرَّ بنا ركوب الابل فنمنا نوماً عميقاً وكانت ليلة رهيبة حيث نزلنا فيها بجوار اللصوص (بني حسن)

٢١ منهُ — قمنا من ذيل (ابو حميد) وسرنا بسهل متباعد الاطراف وبعد هنيهة هبت ريح عاصف من ورائنا فصبرنا عليها حتى بلغنا (الصيقل) والريح هائجة والافق مغبر والانسان لا يمكنهُ ان يلتفت وراءهُ ولا يرى شيئاً امامهُ ولا يستطيع ان يفتح جفنيهِ والتراب يملأ الاعين والانوف والافواه . والوجوه ساهمة شاحبة والعاصفة تحمل حصىً ورملاً يؤلم بضربهِ الاعناق والايدي وكان الطبيعة قد جنت فاثارت وراءنا حرباً عواناً في السماء تميد لها الارض . ماذا يا ترى حدث ؟ امتلأت انفسنا رعباً لا احد يرى صاحبهُ غابت مقدمة القافلة عن الاعين خفيت علائم الطريق . الابل عاجزة عن السير الراكبون يتساقطون عنها تقذفهم العاصفة فتكبهم على وجوههم فلا يقدرون ان يمشوا لان العاصفة تدفعهم بشدة فيسقطون. الآنية وامتعة السفر تطيرها العاصفة الحمقاء . الاكوار تميل على غوارب الابل. لقد تفرقت القافلة شذر مذر ومن الضياع والتيه خفنا على السفر فاذا نفعل

وبعد ساعة وردنا ماء كدراً ملأنا منهُ سقيتنا والعاصفة شديدة ثم نزلنا موضعاً اسمهُ (متيمن) ولم ننصب خيامنا لشدة العاصفة فوقفنا وراء الحمول تماماً وقد اخذت منا التنائف وازعجتنا العاصفة

ومتيمن باشام الميم وفتح التاء وياء وميم مكسورة سهل جدب لا ماء فيهِ ولا كلاء لقلة الغيث في هذه السنة

٢٢ منهُ — سكنت العاصفة سحراً فنهضنا صباحهُ من (متيمن) وقطعنا سهلاً فيهِ صفا وحجارة كثير الرمث والشيح مرعى للابل من الحمض وشجر يشبه الغضا. ثم جاوزنا ارضاً خصبة صالحة للزرع لو فيها ماء وقد اصابنا عطش من يوم امس لان الماء الذي استقيناهُ في الصيقل لم يصفُ ولم نشربهُ لغلظتهِ . ومرت على يميننا مواضع يسمونها (البطميات) قيل ان فيها اطلالاً من ابنية تدمر القديمة التي تبعد عنا يوماً وليلة. ولم يطل بنا السير فبعد بضع ساعات نزلنا (تلعة السماي) ومكثنا فيها يومنا وليلتنا واستراحنا من عناء يوم امس

وبينما نحن نعد العشاء اذا برجل ينادي بشراكم فقد وجد رائدنا ماء فنظرنا فاذا هو بعيد عنا فارسلنا اليهِ القرب والاسقية فملئت وهو كدر الا انهُ عذب واي ماء اعذب من ماء التمامة ؟

وحدث ان احد الرعاة حاول الطرب بجمال كثيرة الى جبل الدروز الذي كنا نراهُ عن بُعد فتبعهُ رجال الركب بسلاحهم فادركوهُ وانهالوا عليهِ رمياً بالرصاص فنفرت الجمال واصيب جمل خطأً برمية كسرت ساقهُ وعلم اللص انهُ مقبوض عليهِ فاسلم نفسهُ باكياً معتذراً اعذاراً مكذوبة

٢٣ منهُ — سرنا بعد اشراق الغزالة في وعر من الارض اسود الحجارة قليل الكلأ وكانت الريح باردة ومررنا امام القريتين في باديتها وهي عن شمالنا ولا نرى الاَّ جبلها المطل عليها

والقريتين فيها قائمقام وقاضٍ شرعي ولم نرهما وقد ذكرهما ياقوت في معجمهِ قال : والقريتان ايضاً قرية كبيرة من اعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سخنة وأرك اهلها كلهم نصارى، وقال ابو حذيفه في فتوح الشام : وسار خالد بن الوليد رضه من تدمُر الى القريتين وهي التي تدعى حوَّارين وبينها وبين تدمر مرحلتان واياها عنى ابن قيس الرقيات بقولهِ :

وسرت بغلي اليك من الشام وحوران دونها والعوير
وسواء وقريتان وعين التمر خرق يكلُّ فيهِ البصير
فاستقت من سجاله بسجال ليس فيهِ منٌّ ولا تكديرُ

كان في نية الركب ان ينزل (السبع بيار) وهو موضع منحرف عن الجادة فيهِ ماء وآبار فاكتفى بالماء الذي عثر عليهِ امس وسار في الدرب اللاحب طلباً لتقريب المسافة حتى ظهيرة اليوم فوطئنا ارضاً قاحلة خصبة التربة . وهنا انتهت الجبال السورية فلا نرى الاَّ سهلاً بعيداً يسميه الاعراب (حماد) وكل سهل عندهم (حماد) . وفي مساء اليوم اعوزنا الماء فارسلنا رائدين ينتجعان الى (السبع بيار) وقد نزلنا على بعد ساعتين عنها فلم يجدا ماء ونظرنا فوجدنا ماء صافياً على الطريق نفسها فوردناهُ ولو كنا واصلنا السير بضع دقائق لنزلنا عليهِ

ضربنا خيامنا في متسع من الارض على شبه دائرة وبعد روح من الزمن طلع علينا رجلان فاذا هما الشيخ نوَّاف الشعلان ورجل في صحبتهِ فسألناهما فقالا انهما يريدان دمشق فباتا ليلتهما عندنا وسريا سحراً وذكرا ان نوري الشعلان شن غارتهُ على شمر واصاب منها ابلاً وانتهب مالاً وكان هذا النبأ شديداً علينا فقد خشينا شر هذا اللص

٢٤ منهُ — سرنا في صباحهِ في سهل حسن لا عوج فيهِ ولا امت وقد كانت هذه الارض عامرة في الازمنة القديمة لقربها من تدمر. وبعد ساعات رأينا سيارة كبيرة وهي احدى السيارات الانكليزية التي سافر بها جماعة من الانكليز في العام الماضي من دمشق الى بغداد حينما غادروا دمشق وحلب للحكومة الفيصلية وسحبوا قوتهم من سوريا الشرقية. وكانت اثنتي عشرة سيارة مسلحة برشاشات وبنادق وصلت بغداد في اليوم الرابع لخروجها من دمشق

ولما رأينا السيارة ونحن على الجمال ، وقد مسنا التعب ضحكنا في انفسنا وقايسنا بين اخفاف البعير وعجل السيارة

جاوزنا الموضع المسمى (سوح مرة) وعند غروب الشمس نزلنا موضعاً يدعونهُ الشحمي واعددنا طعامنا في ظلام الليل فاكلنا ونمنا متعبين لاننا لم نسر قبل اليوم مسيرنا هذا

وفي ليلتنا وقع صقيع كالقطن المندوف بلغ ارتفاعهُ ٦ سنتمترات واعترانا برد شديد

٢٥ منهُ — لم نستطع السير هذا اليوم لشدة البرد ولم نبرح مكاننا وقد نفد ماؤنا ويبست اسقيتنا وقيل لنا ان اعراب البادية شربوا كل المياه التي في هذه الجهات وتوقعنا عطشاً شديداً اذ لم يبق امامنا ماء الا بعد يومين وقد الم بنا جماعة من اولاد علي وهم في طريقهم الى حمص ووقع هذه الليلة ايضاً صقيع شدد علينا وطأة البرد

٢٦ منهُ — ارتحلنا من الشحمي صباحاً وسرنا في ارض سواء وانها لارض صالحة لو كان فيها اناس يعمرونها ويحتالون في جلب الماء اليها ، في ظهر اليوم هدأت الريح القر وخفت صُرارة البرد وسببهُ كما قال الاعراب طلوع سعد السعود هذه الليلة في الساعة السابعة منها

وبعد صحوة من يومنا رأينا اعراباً من الفواعرة يرعون ابلهم في هذه البادية وهم من اعراب حمص

واصلنا سيرنا الى ارض قليلة العشب يسمونها (لقطة) ورأينا فيها ركباً مقبلاً الى الشام ظننّاهُ بادىء بدء غزواً فاذا هم من التجر وقد ذكروا ان عوده ابو تايه شن غارة على جماعة من الفواعرة واستلبهم اموالهم واصاب منهم قتلى وعاد الى

ارضهِ فخشينا ان يكون هذا الشرير يتوقع قدومنا فان اخبار الركبان والقوافل تشيع في البادية بسرعة عجيبة كأن اسلاكاً برقية تنشرها

نزلنا موضعاً اسمهُ (خفية) وكان اليوم طيباً معتدلاً فاخذنا على انفسنا ان نبكر في السرى غداً لنعل الماء فقد نفد ماؤنا حتى لم يبق ما يبل فم الرجل منا

٢٧ منهُ ارتحلنا في غرد وفي الهواء لدعة برد وكان الراكب لا يملك زمام ناقتهِ ومشينا في سهل بين جبلين بينهما طريق يوم هما جبلا (غراف) و (تنف) فغراف هو (غراب) وتنف هو تنوفي او تنوف قال ياقوت عن غراب ما نصهُ : غراب بلفظ واحد الغربان موضع معروف بدمشق قال كثير :

فلولا الله ثم ندى ابن ليلى وأني في نوالك ذو ارتياب
وباقي الود ما قطعت قلوصي مسافة بين مصر الى غراب

والتنف — يلفظونهُ بكسر اولهِ وثانيهِ وهو تنوف قال البكري في معجم ما استعجم تنوف بفتح اولهِ وضم ثانيهِ وبالفاء على وزن فعول وتنوق على وزن فعول موضعان مذكوران في رسم القواعل . والقواعل اجبل من سلمى في بلاد طي قال امرؤ القيس

كأن دثاراً حلقت بلبونهِ عقاب تنوفه لاعقاب القواعل

ونزلنا في موضع يسمى (خور التنف) ووجدنا فيهِ ماء كدرا فاوردنا ابلنا التنف واستقينا وكان مخيمنا في واد منخفض لا ترانا فيهِ السابلة ولا يبصرنا طراق الليل

وفي عصر اليوم زاورنا واجتمعنا في خباء رئيس القافلة (وهو من يكون اكثرهم ابلاً واوسعهم مادة) فشربنا القهوة وتجاذبنا اطراف الاحاديث ونحن فرحون بما وجدنا من الماء وقبل ان ينفض مجلسنا دعا رئيس الركب احد رعاتهِ ان يحضر فاسرع اليهِ ووضع جمراً في وعاء وذر عليهِ فتاتاً من العود فضاع عرفهُ وطار دخانهُ وحمل الوعاء ودار على الجميع فكان كل واحد ينكب على الوعاء ناشراً طيلسانهُ . والعود طيب كثير الاستعمال في نجد لا تخلو دار منهُ حتى دارات الفقراء والرطل الحجازي (١٦٠ درهماً) من جيده يباع باثني عشر ديناراً

بغداد محمد الهاشمي